الإحالة ودورها في سبك النص الشعري

د. حسام جايل

إن البنية النصية " نظام من البنى، كل بنية لها قواعدها الخاصة بها تقيم بها وجها من وجوه النص: هو تركيبي، وهو زماني، وهو إحالي. وتتوفر في مستويين: أحدهما داخل الجملة والآخر داخل النص، وهي تجتمع في المبدأ الذي تقوم عليه كل واحدة منها وهو (العمل) أو (التحكم).

ففي التركيب تحكم الجملة الأولى سائر الجمل اللاحقة لها، وإن وجدت بحكم دورها في البداية فهي نقطة الانطلاق وهي المعلم الأول المؤسس لكل المعالم في النص، وعليها يجري الربط بنوعيه (البياني والخلافي) فما يلحق تفصيل لها وتوضيح أو هو إضافة من حيث الكمية الخبرية، وهو في الوجهين محكوم بها[1].»

يرتكز النص السابق على ضرورة اعتماد البنى النصية في ترابطها على الإحالة وما تقوم به من دور بارز وفاعل في هذا الترابط.

وقضية الإحالة من القضايا التي « شغلت كل من اهتم بالنشاط الفكري عند الإنسان من الفلاسفة والمناطقة وعلماء النفس، وشغلت كذلك كل من اهتم بالنشاط اللغوي عنده من النحاة والبلاغيين وعلماء اللسان بمختلف فروعه وغيرهم. فقضية الإشارة والإحالة في الكلام هي ظاهرة تقع على أساس كل منظومة فكرية.

فاللغة نفسها نظام إحالي إذ يحيل على ما هو غير اللغة، وهي نفسها تشتمل على نوعين من العناصر: إشارية وإحالية، وهما وجهان لابد من النظر فيهما عند دراسة الدلالة اللغوية إذ هما أساسها. وقد درس اللسانيون والمناطقة هذه الناحية ونظروا فيها من حيث اتصالها بالمقام، لكنهم لم يتجاوزوا فيها مستوى الجملة بل إنهم درسوها خارج كل مقام، وإن اعترفوا بدور المقام في ضبط المعنى وإدراكه حتى يتمكنوا من

السيطرة على موضوع درسهم، إلا أن العقود الأخيرة عرفت إقبالا كبيرا على هذا المجال فكان أن تبلور اتجاه كامل يجمع بين اللسانيات والمنطق في دراسة الكلام واتصاله بالمقام (التداولية pragmatique)، ونظام المحاورة الذي يحكمه، وكذلك دلالة العناصر الإحالية في اللغة[2].»

فالقضية قديمة – إذن - ولا نعدم في تراثنا النحوي عبارات كاشفة تعالج موضوع الإحالة وتبرز دوره في اتصال أجزاء الكلام إن على مستوى الجملة المفردة وإن على مستوى أكثر من جملة. فهذا ابن يعيش يقول في شرح المفصل حكاية عن العرب" على أنهم إذا أرادوا ذكر جملة من الجمل الاسمية أو الفعلية فقد يقدمون قبلها ضميرا يكون كناية عن تلك الجملة وتكون خبرا عن ذلك الضمير أو تفسيرا له ولا يفعلون ذلك إلا في مواضع التفخيم والتعظيم[3]."

ومن الذين عالجوا الضمير على مستوى النص: العكبري في شرحه لديوان المتنبي[4]، وثعلب في شرحه لديوان زهير[5]، والشنتمري في شرحه لديوان النابغة[6] ويحدثنا ابن هشام كذلك عن المواضع التي يعود الضمير فيها على متأخر لفظا ورتبة[7] وهي التي تسمى في علم النص الإحالة البعدية أو اللاحقة:

---

(1) نسيج النص: بحث فيما يكون الملفوظ به نصًا- ص 17 - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء- ط 1 - 1993.

(2) السابق ص 115

(3) ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش): شرح المفصل 3: 114 – عالم الكتب – بيروت – د. ت.

(4) أبو البقاء العكبري – شرح ديوان أبي الطيب المتنبي – 1: 9 تحقيق مصطفي السقا وآخرين – دار الفكر بيروت د. ت.

(5) زهير ابن أبي سلمى – ديوان زهير ص 39 – صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب – مطبعة دار الكتب المصرية - 1944.

(6) النابغة الذبياني زياد بن معاوية: ديوان النابغة ص 91- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف – مصر – ط2- 1985. وانظر: الأعلم الشنتمري (يوسف بن سليمان بن عيسى): أشعار الشعراء الستة الجاهلية – 1: 269 وما بعدها، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط3 – 1983.

(7) ابن هشام: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب 2: 574.

أحدهما: أن يكون الضمير مرفوعا بنعم أو بئس ولا يفسر بالتمييز نحو:
نعم رجلا زيد وبئس رجلا عمرو.

وتتضح أهمية الإحالة أو الإشارة اللغوية إذا عرفنا أن الميزة الرئيسية للكلام هي «قدرة كل إشارة لغوية على أن تفسر بإشارة لغوية أخرى تكون أكثر وضوحا منها وهذا في الحقيقة العمل الذي يقوم به المتلقي خلال عملية التواصل.فهو يقوم بإزالة الإبهام من المرسلة بغية الوصول إلى تحديد الهدف الرئيسي من بنائها ومن هنا فإن كل تواصل يعتمد على عمليتين:
أ- عملية بناء المرسلة وتعتمد على انتقاء الكلمات من المخزون اللغوي.
ب- عملية وضع هذه الكلمات جنبًا إلى جنب وفق قواعد النظم التي توضع لها اللغة
فالإشارة اللغوية لا تستطيع أن تقوم بعملية التواصل والتبادل إلا إذا وجدت في إطار مجموعة من الإشارات تحدد العلاقات التي تقوم بينها جميعًا الوظيفة التواصلية للإشارة [8].» [2]
يبدو - إذن - أن الإشارة اللغوية لا تعمل بمفردها بل وسط مجموعة أخرى من الإشارات يكون بينها علاقات محددة وفق النظام اللغوي الذي يجمعها، واعتمادًا على دور القارئ في فهم هذه الإشارات، والربط بينها في ضوء ثقافته العامة وإلمامه بقواعد اللغة وبالسياق أيضا.
ومن ثم تعد الإحالة من أهم وسائل السبك؛ لأنها تمزج بين عدة عناصر مثل أسماء الإشارة والضمائر والأسماء الموصولة.
كما أن الإحالة من البدائل المهمة في إيجاد الكفاءة النصية Efficiency التي هي « صياغة أكبر كمية من المعلومات باتفاق أقل قدر ممكن من الوسائل [9].» [3]
وإذا كانت أهمية الإحالة تكمن في قدرتها على صنع جسور التواصل بين أجزاء النص المتباعدة، والربط بينها ربطا واضحا فإن دي بوجراند يرى أنه« ليس من المستحسن أن نجعل مسافة كبيرة بين اللفظ الكنائي وما يشترك معه في الإحالة[10]"

والحديث عن الإحالة يفرض التعرض لمعناها اللغوي والاصطلاحي بغية تحديد مفهومها.
المعنى اللغوي للإحالة
الإحالة: مصدر الفعل أحال الذي يدور معناه العام حول التغير ونقل الشيء إلى آخر فقد جاء في اللسان:
أحلت فلانا على فلان بدراهم أحيله إحالة وإحالا أي حولته , وأحال عليه بضربه أي أقبل ، ويحيل بعضهم على بعض أي يقبل عليه ويميل إليه، وأحلت الماء في الجدول صببته[11].

وفي تاج العروس: أحال الشيء تحول من حال إلى حال، وأحال الرجل تحول من شيء إلى شيء[12].

وفي القاموس المحيط حال الشيء وأحال تحول [13].
وجاء في المعجم الوسيط: أحالت الدار تغيرت وحال الشيء أو الرجل تغير من حال إلى حال وأحاله نقل الشيء إلى غيره[14].

---

(8) النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون ص 69.
(9) النص والخطاب والإجراء ص 299.
(10) السابق ص 327.
(11) ابن منظور: لسان العرب مادة حول. دار لسان العرب – بيروت – د. ت.
(12) محمد بن مرتضى الزبيدي: تاج العروس مادة حول- سلسلة التراث العربي – وزارة الإرشاد والأنباء – الكويت (د.ت).
(13) الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب): القاموس المحيط مادة حول- ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي- دار الفكر -
(14) مجمع اللغة العربية المعجم الوسيط - مادة حول – القاهرة د.ت.

"والتغير والتحول ونقل الشيء إلى غيره ليس بعيدا عن الاستخدام الدلالي للإحالة النصية، فالتحول والتغير ونقل الشيء من حالة إلى أخرى لا يتم إلا في ظل وجود علاقة قائمة بينها، تلك العلاقة هي التي سمحت بالتغير كما أن اللفظ المحيل يحمل معنى ما يشير إليه، فهو تغير من حيث الجهة كالعودة إلى الوراء أو الانتقال إلى الأمام من خلال علاقة قائمة بين الأسماء والمسميات أو بين اللفظ وما يحيل إليه فإرجاع اللفظ إلى ما يشير إليه إنما هو تغير في الجهة، ونقل المتلقي بعقله على الإحالة، وسيظهر من خلال المعنى الاصطلاحي للإحالة ضرورة تجسيد العلاقة وطبيعتها. [15]"

المعنى الاصطلاحي

لا يبتعد المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي كثيرا، مع الإقرار بأن التوسع في مفهوم الإحالة في ضوء تطبيقاته، وعلى ضوء علم النص قد اكتسب دلالات جديدة أوسع،وأشمل من الاستخدام القديم، وزادت من حضوره واستخداماته.

وربما كان من أبرز التعريفات النصية للإحالة ما ذكره دي بوجراند: من أن الإحالة reference هي تلك" العلاقة بين العبارات من جهة، وبين الأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات[16]."

وفي موطن آخر يعرفها بأنها" العلاقة بين العبارات والأشياء objects والأحداث events والمواقف situations في العالم الذي يُدل عليه بالعبارات...ذات الطابع البدائلي alternative في نص ما إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى نفس عالم النص أمكن أن يقال عن هذه العبارات أنها ذات إحالة مشتركة "Co_REFERNCE. [17]

ويرى جون لاينزJ. Loyns أن الإحالة هي" العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميات هي علاقة إحالة، فالأسماء تحيل إلى المسميات[18]". وهنا نجد جون لاينز يهتم بالمفهوم الدلالي، ويذكر أن المتكلم هو الذي يقوم بدور أساسي في عملية الإحالة؛ حيث إن المتكلم" هو الذي يحيل(باستعماله لتعبير مناسب) أي إنه يحمل التعبير وظيفة إحالية عند قيامه بعملية إحالة[19].

ويعضد كل من براون ويول هذا المفهوم للإحالة، ويريان أنه يجب على محلل الخطاب / النص الاعتماد عليه. وقد ركز كثير من علماء النص على دور المتكلم/ المبدع في الإحالة، ومنهم ستروسن/ P.F Strauson الذي يرى أن.بأن" الإحالة ليست شيئا يقوم به تعبير ما، ولكنها شيء يمكن أن يحيل عليه شخص ما باستعماله تعبيرا معينا. "[20]

ويرى سيرل Searle أن الإحالة هي مجمل ما يقوم به المتكلم؛ فيقول" إن كنا نعني أن المتكلمين يحيلون فإن التعبيرات لا تحيل أكثر من أن هؤلاء المتكلمين يصدرون وعودا وأوامر؛ ولهذا ففي تحليل الخطاب ينظر للإحالة على كونها عملا يقوم به المتكلم / الكاتب.[21]"

---

(15) د. أحمد عفيفي: الإحالة في نحو النص دراسة في الدلالة والوظيفة ص4- بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث للنحو، قسم النحو والصرف والعروض- كلية دار العلوم -جامعة القاهرة- 2005.

- النص والخطاب والإجراء، ص172و320، وللمزيد انظر:

- ج. ب. براون وج.يول: تحليل الخطاب ص 36. ترجمة وتعليق د. محمد لطفي الزليطني ود. منير التريكي – النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود الرياض- ط1 - 1997.

(16) النص والخطاب والإجراء، ص172.

(17) السابق ص 320.

(18)J.Loyns: language and linguistics , an introduction p.133 Cambridge university press 1995.

(19) السابق

(20) تحليل الخطاب ص 36.

(21)Brown and Yulle: Discourse analysis p. 143 , Cambridge university press 1996.

ونلحظ أن هذه التعريفات قد حاولت أن تقدم تعريفا للإحالة، وأن تبرز دور مستعمل اللغة في الإحالة لا سيما المتكلم / الكاتب، وهي في مجملها لا تخرج عن تعريف دي بوجراند الذي ذكرناه في بداية الكلام. (22)

ونستطيع من كل ما سبق أن نقول أن مفهوم الإحالة هو" أن الإحالة علاقة معنوية بين ألفاظ معينة وما تشير إليه من أشياء أو معان أو مواقف تدل عليها عبارات أخرى في السياق أو يدل عليها المقام، وتلك الألفاظ المحيلة تعطي معناها عن طريق قصد المتكلم مثل الضمير واسم الإشارة واسم الموصول.... إلخ.
حيث تشير هذه الألفاظ إلى أشياء سابقة أو لاحقة قصدت عن طريق ألفاظ أخرى أو عبارات، أو مواقف لغوية أو غير لغوية."(23)
ولأن الإحالة إحدى من وسائل ربط النص وتماسكه وسبكه فإنها تأخذ بعين الاعتبار العلاقات بين أجزاء النص وتجسيدها، ودورها في خلق علاقات معنوية اعتمادا على تلك العناصر الإحالية، ويتم ذلك عن طريقين."(24)
طريق مباشر: وهو القصد الدلالي إلى ما يشير إليه اللفظ مباشرة دون عناء، أو الحاجة إلى تأويل؛ فالعنصر المحيل أيا كان نوعه، وكذلك العنصر المحال إليه لابد أن يكونا بارزين واضحين دون حاجة إلى التأويل، ويرتبط ذلك بالإحالات القبلية والبعدية التي تكون داخل النص.
طريق غير مباشر: ونعني به التأويل؛ ويحدث ذلك في حالة عدم وجود المحال إليه بشكل مباشر، وواضح داخل النص.
وسواء كانت الإحالة مباشرة أو غير مباشرة؛ فإن كلتا الطريقتين ينبغي أن تتوافر فيهما مجموعة من الضوابط هي:
أ- تجسيد علاقة دلالية بين المحيل والمحال إليه.
ب- تتسم تلك العلاقة بالتوافق والانسجام، وذلك من خلال اشتراك اللفظ المحيل والمحال إليه في مجموعة من العناصر تؤكد طبيعة تلك العلاقة التي يكون بعضها نحويا مثل إمكان الإسناد إليه، أو صرفيا مثل التذكير والتأنيث، أو يكون متعلقا بالكم، مثل الإفراد والتثنية والجمع.... إلخ والنص هو الحقل الكاشف عن كل هذه العلاقات.

تقسيم الإحالة

ذكرنا سابقا أن الإحالة أداة من أدوات سبك النص، وترابطه؛ ومن ثم فهي تمارس حضورا طاغيا لا يقف، أو لا يكتفي بالنص داخليا فحسب؛ بل يمتد ليشمل أشياء خارجية عن النص؛ كاستحضار عالم، أو عوالم النص الخارجية، وكل ما يشير إليه النص وهو خارجه؛ كالإحالة المقامية. ويرى البعض أن مرد هذا" العموم يعود إلى التداولية أو الجانب التداولي من جوانب علم النص الذي يدل على وجود علاقات متشابكة ومتفاعلة بين اللغة والمواقف الثقافية العامة؛ بل بينها وبين الخطاب بشكل عام؛ لأن الإحالة تقوم على مبدأ التفاعل بين المتلقي والنص والمواقف العامة الخارجة عن النص، وبدون هذا التفاعل يصير الانتفاع بقراءة النص شيئا غير مؤكد أو ربما غير

---

(22) للمزيد انظر:
- الإحالة في نحو النص ص4.
- نسيج النص ص 121 وما بعدها.
- لسانيات النص ص 17.

(23) الإحالة في نحو النص ص 4.
(24) السابق ص 5 ومراجعها.

موجود؛ وذلك لأن الأعراف والمواقف الاجتماعية تنطبق على المفهوم العام للنصوص."[25] وبناء على ذلك ارتبط، أو تم ربط علم النص بالمواقف الاجتماعية من خلال نصوص لا جمل؛ لأن الوعي الاجتماعي« ينطبق على الوقائع لا على أنظمة القواعد النحوية."[26]
ويعرض الشكل الآتي لترسيمة لأنواع الإحالة كما وردت عند علماء النص

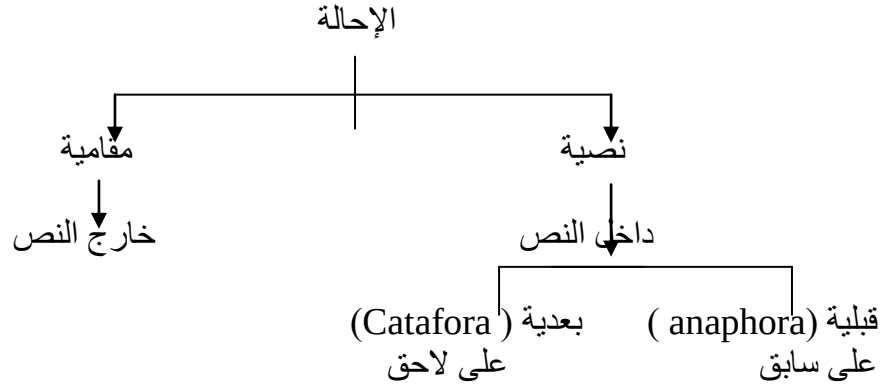

تنقسم الإحالة – إذن- إلى:
أولا: إحالة نصية: وهي مجموعة الإحالات والإشارات اللغوية داخل النص."[27]
ثانيا: إحالة مقامية: وهذه الإحالة تكون خارج النص، أو تحيل على غير مذكور.
وتنقسم الإحالة النصية إلى قسمين هما:
1- إحالة قبلية: أي إحالة على سابق وهي إحالة إلى الوراء؛ أي أنها تحيل إلى شيء سبق ذكره في النص؛ وبالتالي فإن استحضاره يحتاج إلى تراجع في القراءة؛ أي العودة مرة أخرى إلى ما سبقت قراءته، وهنا تقوم الضمائر والموصولات والإشاريات بالإحالة اختصارا وتشويقا، وتماسكا.
2- إحالة بعدية:أي إحالة على لاحق وهي إحالة إلى الأمام، أو إحالة إلى ما لم يأت ذكره بعد، ويتم العثور عليه بالتقدم والاستمرارية في القراءة.
هذه أهم أقسام الإحالة وتنقسم قسمين كما رأينا. على أن الدكتور أحمد عفيفي يورد قسما ثالثا ويسميه الإحالة البينية ويعرفها بقوله: " وهي الإحالة التي لا توجد خارج النص أو داخله بشكل مباشر بل يمكن أن تأتي عن طريق الإيحاء، وهي ما أطلق عليه (المعطى الجديد) حيث لم يذكر صراحة في النص المحال إليه بل يفهم من سياق الحوار، والدليل على وجوده يكون داخل النص غير أنه لم يذكر صراحة فلا هي مذكورة داخل النص، ولا هي مفهومة من الموقف وحده."[28]

ورغم وجاهة رأي أستاذنا الدكتور عفيفي فإن هذا التقسيم يزيد الأمر تفريعا وتشعبا؛ حيث إن مرد الأمر في هذه الحالة يعود - في المثال الذي أتى به- إلى الضمير المذكور صراحة في النص؛ فتصبح الإحالة إحالة نصية في هذه الحالة أو أنها إحالة خارجية على اعتبار أنها تشير إلى شيء خارج النص رغم وجود ما يغني عنه داخل النص ذاته، فكما نعلم أن نظام اللغة يسمح بالتعبير عن الشيء بجزء منه كما ورد عن العرب الفصحاء، ولا حاجة بنا إذن للتقسيمات والتفريعات الكثيرة إذا كان بالإمكان رد الأمر إلى أصوله مع وجود ما يربطه بالنص إن داخل النص وإن خارجه. وقديما قالوا ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير."[29] ويبقى التعويل بعد ذلك على النص، وعلى مقدرة القارئ وبراعته في الكشف عن هذه الإحالة.

---

(25) الإحالة في نحو النص ص 17 ومراجعها.
(26) النص والخطاب والإجراء ص 92 . وانظر:
- نقل المصطلح إلى العربية ، ص 131 ، 298 .
(27) انظر: لسانيات النص ص 17 .
(28) الإحالة في نحو النص، ص17.
(29) الأشباه والنظائر 270/1.

عناصر الإحالة

تتكون الإحالة من عدة عناصر، وقد قسم علماء النص عناصر الإحالة إلى ما يأتي:

1- المتكلم / مبدع النص: وتتم الإحالة هنا عن طريق القصد المعنوي لمبدع النص، ولعل هذا ما قصده دي بوجراند حين اشار إلى أن" الإحالة عمل إنساني." [30] أي أنها تعتمد بشكل مباشر على الإنسان/ المبدع، وعلى الإنسان/ المتلقي/ القارئ، وهي من قبل ومن بعد تعتمد على اللغة الإنسانية.

2- اللفظ المحيل: وهو العنصر الإحالي الذي ينبغي أن يتجسد إما ظاهرا، أو مقدرا كالضمير أو الإشارة" وهو الذي سيحولنا ويغيرنا من اتجاه إلى اتجاه خارج النص أو داخله." [31]

3- **المحال إليه**: وهذا العنصر موجود إما خارج النص، أو داخله، ويتكون من كلمات، أو عبارات أو دلالات وتفيد معرفة الإنسان بالنص وفهمه في الوصول إلى المحال إليه.

4- **العلاقة بين اللفظ المحيل والمحال إليه**: ويقصد بذلك ضرورة التطابق بين اللفظ المحيل والمحال إليه، مع مراعاة قوانين اللغة وعلى رأسها المجاز

وسائل الإحالة

وسائل الإحالة هي الألفاظ والأدوات اللغوية، وغير اللغوية؛ التي من خلالها تتحقق الإحالة، أو هي تلك" الأدوات التي نعتمد عليها في فهمنا لها لا على معناها الخاص بل على إسنادها إلى شيء آخر."[32] وقد قسمها هاليداي Halliday إلى [33]:

أ- الضمائر ب- أسماء الإشارة ج- أدوات المقارنة

وهذا هو التقسيم الذي ارتضاه محمد خطابي في كتابه لسانيات النص[34].ومن هذا المنظور يعرف دي بوجراند الإحالة بأنها الألفاظ الكنائية(الضمائر) ويضيف إليها الموصولات. [35] وهذا ما أطلق عليه الأزهر الزناد مصطلح (العناصر الإحالية)، وهو ينظر إلى الإحالة في إطار اهتمام النحاة والبلاغيين واللسانين بالنشاط اللغوي؛ لأن اللغة نفسها نظام إحالي يحيل على ما هو غير لغوي؛ ومن ثم يكون لدينا نوعان من العناصر: إشارية، وإحالية، ومن هنا فقد تناولها بوصفها معوضات لغوية يندرج تحتها: مفهوم الإشارة، والضمائر، وتحكمها بنية نحوية ودلالية.

ويشمل العنصر الإشاري كلا من:

أ- اللفظ المفرد: الدال على حدث أو ذات أو موقع ما في الزمان أو المكان.

ب- جزءا من الملفوظ أو الملفوظ كاملا.

وتأتي على رأس العناصر الإشارية :

أ- الضمائر ب- أسماء الإشارة [36]

وكل منها منها يمارس دوره وفق قواعد اللغة، وإلمام المتكلمين بها، وقصدهم.

ويسترعي الانتباه هنا أن علماء النص لم يتفقوا على تقسيم واحد لأدوات الإحالة؛ ولهذا فإننا نرى أن مرد ذلك يخضع لطبيعة كل لغة على حدة، ونرتضي تقسيمًا ورد عند الدكتور أحمد عفيفي[37]، ونراه أكثر ملاءمة لطبيعة العربية ونظامها، وهذا التقسيم هو الذي نعتمده ونركن إليه كثيرا في معالجتنا لشعر أحمد عبد المعطي حجازي.

---

(30) النص والخطاب والإجراء، ص 36.

(31) الإحالة في نحو النص، ص5.

(32) تحليل الخطاب، ص 230.

(33) السابق نفسه. وانظر:

- مدخل إلى علم لغة النص، ص102،101،94،90.

(34) د. محمد خطابي، لسانيات النص، ص17ص مدخل لانسجام الخطاب - المركز الثقافي العربي المغرب -1999.

(35) النص والخطاب والإجراء ص 320 ٠

(36)) نسيج النص ص 115- 116 ، وانظر أيضا :الإحالة في نحو النص ص 8 .

(37) انظر: الإحالة في نحو النص ص 9-10 .

وهذا التقسيم هو:

أولا: الضمائر

ثانيا: أسماء الإشارة

ثالثا: أدوات المقارنة

رابعا: الاسم الموصول

أولا: الضمائر

تنقسم إلى:

أ- وجودية

ب- ملكية

أ- والضمائر الوجودية تنقسم إلى ضمائر للمتكلم (أنا – نحن) أو للمخاطب (أنت – أنت أنتما- أنتم- أنتن) أو للغائب (هو- هي- هما- هم – هن)

ب- ضمائر الملكية: وتنقسم إلى ضمائر للمتكلم (كتابي- كتابنا) أو للمخاطب (كتابك- كتابي) أو للغائب(كتابه- كتابهم)

والجامع بين هذه الضمائر سواء أكانت للملكية، أو للوجودية؛ أنها جميعا تنقسم دلاليا بحسب المقصود بها حين التلفظ إلى ضمائر للمتكلم وللمخاطب، وللغائب.

وهناك فارق دلالي؛ فعلى حين تدل الضمائر الوجودية على ذات مثل(أنا- أنت)؛ تدل ضمائر الملكية على الإضافة والمصاحبة والتلازم مثل: (كتابي – كتابها).

وعلى ذلك فإننا نعد هذه الضمائر من قبيل الإحالة المقامية، أو الخارجية؛ أي إنها تحيل إلى شيء خارج النص، باستثناء ضمائر الغياب التي تحيل في الغالب إلى شيء داخل النص؛ وذلك بغية الإسهام في سبك النص وترابط أجزائه.ومع ذلك فإن الأمر يظل رهنا بطبيعة النص، ومعطياته اللغوية، وقصد المتكلم، وفهم المخاطب لضوابط النحوية والسياقية.

ثانيًا: أسماء الإشارة

وهذه الأدوات تقوم بوظيفة إحالية مزدوجة؛ أي أنها تحيل إلى داخل النص، وإلى خارجه بحسب وجود المحال إليه هي تحيل إلى داخل النص، وبهذا فإنها تتساوى مع ضمائر الغياب، وتقسم أسماء الإشارة باعتبارات عدة؛ فهي تقسم بحسب الظرفية أو المسافة، أو النوع أو العدد

أ- التقسيم حسب الظرفية:

- ظرفية زمانية مثل:الآن –غدا- أمس.
- ظرفية مكانية مثل: هنا- هناك- هنالك.

ب- التقسيم حسب المسافة:

- بعيد مثل: ذلك- ذاك- تلك.
- قريب مثل: هذا- هذه.

ج- التقسيم بحسب النوع:

- مذكر مثل: هذا.
- مؤنث مثل: هذه.

د. التقسيم حسب العدد:

- مفرد مثل: هذا- هذه.
- مثنى مثل: هذان- هاتان.
- جمع مثل: هؤلاء.

وتكمن قيمة أدوات الإحالة الإشارية في أنها" تقوم بالربط النصي عندما تستخدم في الإحالات القبلية أو البعدية، ومن هنا فإنها تساعد على إيجاد ترابط نصي،ويلاحظ أن المفرد يتميز بما

يسميه هاليداي ورقية حسن (الإحالة الموسعة) وهي إمكان الإحالة إلى جملة بأكملها أو متتالية من الجمل." [38]

ثالثا: أدوات المقارنة

وتقوم هذه الأدوات بوظيفة الربط بين السابق واللاحق، كما أن هذه الأدوات من شأنها أن تؤدي إلى المطابقة، أو المشابهة أو الاختلاف، أو الإضافة إلى السابق؛ إما بالكم أو بالكيف، أو عن طريق المقارنة. ويتم ذلك عبر جسر من الكلمات من قبيل: مشابه- غير- خلافا- مثل علاوة على- أكبر من - كبير عن- بالإضافة إلى - كبير مثل- ومقارنة بما- أسوة بـ- فضلاً عن.... إلخ

ومن ثم فإن أدوات المقارنة" لا تختلف عن الضمائر وأسماء الإشارة في كونها نصية؛ وبناء عليه فهي تقوم مثل الأنواع المتقدمة لا محالة بوظيفة اتساقية." [39]

وأرى أن هذه الأدوات تقوم بدورها الأكبر في عملية اتساق النص في النثر وليس في الشعر إذ إن الكلمات التي تؤدي إليها من الكلمات الشائعة في النصوص النثرية، بل على ألسنة العامة في الحوارات اليومية وليست مما يشيع استخدامه في الشعر إلا قليلا.

رابعا: الأسماء الموصولة:

تشير المعلومات النحوية إلى أن هذه الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة[40]؛ بل إن اكتسابها الدلالة يعود إنها قد إلى عنصر، أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب؛ تقوم على مبدأ التماثل والتطابق فيما هو موجود. ودلالة ذلك واضحة جدا في تقسيم الموصولات إلى :

الموصول الخاصة مثل: الذي- التي- اللذان- اللتان - الذين - اللاتي.. إلخ.

وتختلف الموصولات العامة عن الخاصة؛ حيث لا تنطبق عليها فكرة التطابق؛ لأنها مبهمة، وتستخدم لفظا واحدا لكل الموجودات مثل: من- ما.. إلخ

وهنا نجد أن العامل المشترك بين" الأسماء الموصولة بقية أدوات الاتساق الإحالية؛ هو اشتراكها جميعا في عملية التعويض؛ لأنها ألفاظ كنائية لا تحمل دلالة خاصة، وكأنها جاءت تعويضا عما تحيل إليه، وهي تقوم بالربط الاتساقي من خلال ذاتها، ومرتبطة بما يأتي بعدها من صلة الموصول التي تصنع ربطا مفهوميا بين ما قبل الذي وما بعده." [41].

هذه وسائل الإحالة الأربع، وهذه الوسائل تعد من أكثر الأدوات أو الوسائل الإحالية وأبرزها التي يستخدمها الكتاب بكثرة؛ بغية الإحالة النصية في إبداعاتهم. ولعلنا إذا أنعمنا النظر فيما يقع نحت أيدينا من كتب، أو فيما نسمع من نصوص؛ سوف نجد أنه لا يوجد نص مكتوب أو مسموع يخلو من الضمائر، أو الموصولات أو أسماء الإشارة، أو أدوات المقارنة؛ ومن ثم فهي مكون أصيل من مكونات النص لا يمكن الاستغناء عنه. [42]

---

(38) الإحالة في نحو النص ص 10، ومصادرها.

(39) لسانيات النص ص 19.

(40) انظر :

- النص والخطاب والإجراء ص 32 .
- نسيج النص ص 118 .

(41) راجع الإحالة في نحو النص ص 11.

(42) للمزيد انظر :

- تحليل الخطاب ص 256 .
- الإحالة في نحو النص ص 11 .

(*) يقصد بمدى الإحالة: ذلك الفضاء أو المدى بين الأداة الإحالية وما يفسرها.

تقسيم الإحالة من حيث المدى

لقد بذل علماء النص جهدا كبيرا في محاولة تقنين، أو وضع الأسس التي تبنى عليها النصوص، وتكون هي ذاتها مدخلا لدراسة تلك النصوص؛ بما توحي إليه من رسائل، وبما تحمله من دلالات. وفي معالجتهم لموضوع الإحالة فقد قسموا الإحالة من حيث المدى(*) إلى قسمين، هما: [43]

- **إحالة ذات مدى قريب:**

وهي التي تكون في مستوى الجملة الواحدة؛ حيث لا توجد فواصل تركيبية Berrieres جملية كقول حجازي: [44]

هذا أنا،

وهذه مدينتي

- **إحالة ذات مدى بعيد:**

ويقصد بها أن تكون أداة الإحالة بين جمل متصلة، أو متباعدة في النص، ومن شأنها أنها تتجاوز أحيانا الفواصل، أو الحدود التركيبية التي بين الجمل. وقد عيب على هذا النوع أنه قد يسبب ارتباكا وغموضا في الدلالة لدى المتلقي؛ نظرا لطول المسافة بين العنصر المحال والعنصر المحال إليه. وبناء على هذا فإن دي بوجراند يرى أنه ليس من المستحسن أن تطول المسافة بين اللفظ الكنائي المحيل وما يحيل إليه. [45]

الإحالة بين الإفراد والتعدد

وكما تتنوع الأدوات المحيلة من حيث المدى؛ فإنها كذلك تتنوع وتتعدد من حيث الكم أو العدد؛ حيث نجد أن هذه الأدوات قد تصدق على شيء واحد وقد تصدق على أكثر من شيء والنص هو الذي يحدد ذلك كله بما يحمله من دلالات ومفاهيم وسياقه هو الذي يساعد على ذلك، فعندما تكون الإحالة في النص حقيقية فإنها في هذه الحالة تتسم بسمة الأحادية أو الإفراد وذلك مثل قوله تعالى: ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾[46] فإن مرجع الضمير في(إليه) يعود إلى الله عز وجل، أما إذا كانت الإحالة مجازية فإنها تتسم بالتعدد كما في عود الضمير في كلمة (يرفعه) في الآية السابقة فقد يكون العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب، أو الكلم الطيب هو الذي يرفع العمل الصالح وهذا كله على سبيل المجاز؛ لأن الرافع الحقيقي هو الله عز وجل[47].

الإحالة الموسعة

ترتبط الإحالة من حيث الضيق أو الاتساع باللفظ المحيل؛ فيدل الاسم المفرد على التوسع في الإحالة؛ لأنه يستطيع أن يحيل" إلى جملة بأكملها، أو متتالية من الجمل."[48] وقد تشكل هذه المتتالية- إذا طالت- نصا كاملا" حيث تنشط الإحالة مساحة كبيرة من المعلومات بشكل موسع."[49].

---

(43) انظر: نسيج النص ص 123 – 124 .

(44) الأعمال الكاملة ص 97-98 .

(45) للمزيد انظر: الإحالة في نحو النص، ص 23 ومراجعها.

(46) جزء الآية 10 من سورة فاطر.

(47) للمزيد راجع:

- في نحو النص ص 24.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق 1: 151.

(48) لسانيات النص ص 19 .

(49) الإحالة في نحو النص ص 25.

كأن تقول: هذا النص إشارة إلى نص أحادي مكتوب، أو تقول: هذا العمل. وقد تكون الإشارة إلى نص واحد، أو إلى مجموعة نصوص داخل كتاب مثل: ديوان شعر، أو مجموعة قصصية، ومنه قول حجازي: [50]:

بابُ قلعه
فيه آثارُ دماءٍ وصدأ

وينتشر هذا النوع من الإحالة بشكل كبير في القرآن الكريم؛ وبشكل خاص حين تأتي ألفاظ إشارة مفردة لتشير إلى جملة وقائع أو متتالية من الجمل السابقة مثل: (هذا – ذلك) ومنه قوله تعالى في سورة ص:

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (56) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) ﴾ [51].

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[52].

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[53].

فالعنصر الإشاري هذا (في الآية الأخيرة) يشير إلى كل سور القرآن، وآياته.

الإحالة من حيث الإطلاق والتقييد:

هناك عناصر متعددة تتحكم في الإحالة، وفي تفسيرها، وتعمل على الربط بين العنصر المحيل، والمحال إليه، ومن ثم يستطيع القارئ ربط عناصر النص الإحالي بعضها ببعض؛ وبناء على هذا قسموا اللفظ المحيل من حيث الإطلاق والتقييد، أو الربط إلى قسمين هما: [54]

- لفظ مقيد:

ويقصد به ذلك اللفظ الذي يكون له ما يفسره، ويحكمه داخل النص، وهذا النوع يتعدد ويكثر داخل النص فيحيل إلى سابق، أو إلى لاحق.

- لفظ مطلق:

وهذا اللفظ على عكس اللفظ المقيد، ومنه الأسماء الموصولة، وأسماء الشرط، والاستفهام، ومن ذلك ما جاء في الحديث الشريف[***إنما الإعمال بالنيات فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته***

---

(50) الأعمال الكاملة ص 60.

(51) سورة ص، الآيات ص:55-65.

(52) سورة الحج، آية 60.

(53) سورة النمل آية 76.

(54) الإحالة في نحو النص، ص 27 .

إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.
[[55]

فالعنصر الشرطي المتكرر (من) يحيل إلى فرد أو أفراد غير محددين.

عناصر البنية الإحالية

تتكئ البنية الإحالية على عناصر تعمل من خلالها، وتمارس تأثيرا في بنية النص، وفك شفراته، وعناصر البنية الإحالة تنقسم إلى قسمين[56]:

الأول: العنصر الإشاري.

الثاني: العنصر الإحالي.

والعنصر الإشاري يقصد به العنصر المحال إليه من ذوات، أو مفاهيم؛ يتم التعبير عنها في شكل أسماء مفردة أو مركبات اسمية تذكر باسمها الصريح عند ورودها أول مرة في النص، ويطلق على هذه العناصر العناصر الإشارية.

ومن ذلك قول حجازي: [57]

قديستي
كا اسمها جميلة

فجميلة هنا إشارة إلى المناضلة الجزائرية جميلة بوحريد؛
حيث كتب النص،

ويدخل تحت العنصر الإشاري كل من؛ الأحداث والصفات التي عبر عنها المتكلم في شكل أفعال صريحة، أو مشتقات، ويحدث هذا على مستويين هما:

أ- المستوى الخارجي

ونعني به المقام، أو السياق العام الذي أنجز فيه النص، وهذا المقام- غالبا- ما يتم حذفه أو عدم ذكره، ويتم استخلاصه من النص. وندلل على ذلك هنا بديوان" أوراس"؛ حيث كتب في سياق موجة التحرر في البلاد العربية من الاستعمار إبان فترة الخمسينيات، ومطالع الستينيات من القرن العشرين؛ لذا نجد روح الثورة والتمرد تشيع في الديوان، كما نجد الإشادة بأبطال حركات التحرر ومدحهم، والتغني بأفعالهم. والإشارة واضحة إلى ثورة الجزائر بدءا من عنوان الديوان، مرورا بقصائده.

ب- المستوى الداخلي وينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ويقصد به المقام الوارد على ألسنة الشخصيات النصية الموجودة داخل النص، وتشمل:

- الذوات: ويقصد بها الشخصيات التي حاضرة داخل النص، وتقوم بالسرد أو المناقشة، أو المحاورة كإشارة حجازي إلى نفسه في قصيدة مرثية للعمر الجميل: [58]

هذه آخر الأرض
لم يبق إلا الفراقْ

---

(55) البخاري(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن بردزبه) : صحيح البخاري باب بدء الوحي 1: 3 المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء كتب السنة – القاهرة – ط2 - 1990 وانظر :

- العسقلاني (أحمد بن حجر) فتح الباري 1: 15- تحقيق عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي – الكتب العلمية بيروت – ط1 – 1989.

(56) الإحالة في نحو النص ص 27.

(57) الأعمال الكاملة ص 125 .

(58) الأعمال الكاملة ص59.

سأسوّى هنالك قبرًا
وأجعل شاهده مزقة من لوائك
ثم أقول سلامًا
زمن الغزوات مضى والرفاقْ
ذهبوا
ورجعنا يتامى

- الأحداث: ويقصد بها ما يتم التعبير عنه من خلال الأفعال والكلمات، مثل التعبير عن مذبحة القلعة[59]

القسم الثاني:

هو عالم النص وهو عبارة عن نصوص فرعية بما تشتمل عليه من ذوات وأحداث وأزمنة وأمكنة وأقوال وأوصاف بعضها ضروري وبعضها ثانوي[60]

العنصر الإحالي

لقد أشرنا سابقا إلى أن العنصر الإحالي هو: كل لفظ كنائي يحتاج في فهمه إلى مكون آخر يفسره، وهذا العنصر مثل العنصر الإشاري ينقسم إلى قسمين:

أ- عنصر إحالي معجمي:

ويقصد به ما يحيل إلى لفظ دال على ذات، أو معنى مجرد مثل: علم الشخص أو الزمان أو المكان أو صفة.

والعناصر الإحالية المعجمية كثيرة ومتعددة، ولها نظام حاكم يضبطها، ويقنن عملها وفق قواعد النحو.

ب- عنصر إحالي نصي:

يحيل إلى مقطع كامل، جملة، أو جمل متوالية، ويمكن أن يدل على الفضاء العام للنص، والعنصر هنا لا يدل على مدلول لفظ معجمي، بل يدل على مجموعة من المعاني العامة والأحداث المفهومة من جمل كثيرة."[61]

وتتميز الإحالة النصية من الإحالة المعجمية بأمور أهمها [62]:

1- أن الإحالة المعجمية أكثر تعقيدا في بنيتها من الإحالة النصية، وهذا أمر يتعلق بنسبة الحاجة إلى كل واحدة منهما في الاستعمال اللغوي، وذلك أن عنصر الإحالة المعجمي بحكم ما يحيل عليه يتواتر استعماله في سياقات متعددة في النص الواحد، وفي مستويات مختلفة منه؛ فينتج عن ذلك تعقيد في الوحدة الإحالية التي تكونها العناصر الإحالية العائدة على المفسر الواحد. أما الإحالة النصية فتستعمل غالبا لغاية الاختصار في اللفظ، وتكون العناصر الإحالية المعجمية -نتيجة لذلك- محدودة من حيث التواتر، وسياق ورودها محدود كذلك، والبنية الإحالية فيها بسيطة بالتبعية .

2- ولئن اتفقت الإحالة المعجمية والإحالة النصية في العامل الذي يحكم الإحالة بوجه عام فإنهما تفترقان في نوع القناة الرابطة بين العنصر الإشاري والعنصر الإحالي في كل منهما: ففي الإحالة النصية يكون العنصر الإشاري ملفوظا دائما أو في حيز الملفوظ (إذا ما توفر خارج النص الذي تجري فيه الإحالة).

---

(59) السابق، ص 97-98 .

(60) راجع الإحالة في نحو النص، ص27.

(61) نسيج النص ص 159 .

(62) الإحالة في نحو النص،ص29، ونسيج النص، ص159..

أما الإحالة المعجمية: فتعمل مع العنصر الإشاري في مختلف وجوه وجوده، فيكون لفظا داخل النص أو مرجعا خارجه (في المقام)

3- ويتوفر فارق آخر وإن اتصل بكيفية الربط فإنه يمثل سمة هامة في ضبط الفوارق بين نوعي الإحالة: فالإحالة المعجمية تفترض أساسا مطابقة تامة بين العنصر الإشاري والعنصر الإحالي المرتبط به (الجنس، والعدد، والتعريف، والتنكير) فمثلا لا يعود الضمير المفرد المؤنث الغائب إلا على عنصر إشاري يتوفر فيه صراحة: التأنيث(بصرف النظر عن كونه حقيقيا أو غير حقيقي) والإفراد. أما الإحالة النصية فلا تعتبر هذا القيد إذ يمكن أن يعود على العنصر الإشاري النصي عناصر إحالية نصية أو معجمية مؤنثة وأخرى مذكرة دون ضير...

4- وهناك فارق آخر بين نوعي الإحالة من زاوية المطابقة في الجنس دائما، يتمثل في وجود إمكانية الحياد الجنسي في الإحالة النصية، وامتناعه في الإحالة المعجمية، فصيغة (فعل) مثلا تحتمل التذكير والتأنيث إذا جرت مجرى الاسم فعل / فعلة ولكنها إذا جرت مجرى الفعل انتفت مقولة الجنس منها تماما.

المتلقي ومرجع الإحالة

قد يسهل على المتلقي أن يحدد مرجع الإحالة دون إعمال ذهني، ولكن في بعض الأحيان يصعب عليه هذا الأمر مما يضطره لإعمال ذهنه للوصول إلى تحديد مرجع الإحالة والمشار إليه، ومرد هذه الصعوبة يعود إلى عدد من الأمور منها:

1- اتساع المسافة بين اللفظ الكنائي وما يحيل إليه.

2- وجود أكثر من مرجع للإحالة أو تصور ذلك" فلو سبقت ذوات كثيرة أو دلالات متنوعة يمكن أن يحيل إليها لفظ ما، وليس هناك دليل أو قرينة تعين المتلقي على التحديد فإن ذلك سيزيد من صعوبة الطريق أمام المتلقي لتحديد مرجع الإحالة." [63]

3- وجود غموض فيما يصدق عليه اللفظ الكنائي من حيث العدد أو النوع هم مثلا: نساء، رجال، ثم عددهم ما هو .

4- صعوبة التحديد من خلال قلة المعرفة الثقافية للمتلقي عن الموضوع / الخطاب الذي يتحدث فيه المتكلم / الكاتب، وكان لهذا الموضوع أثره في ميدان البحث اللغوي

والأدبي منه على وجه الخصوص مما أسهم في نشوء نظرية التلقي التي تتيح للمتلقي مساحة كبيرة في فهم النص - بل زاد الأمر إلى الحد الذي نادى فيه البعض بموت المؤلف- « فثقافة المتلقي ومعرفته تندمج وتشارك وتنصهر مع الدلالات الصادرة من النص؛ ولهذا يحدث نوع من الانسجام لو أن لدى المتلقي معرفة بالتصور الذي يوحيه النص أو يشير إليه صراحة."[64]

5- إذا كانت الإحالة خارج النص فإن ذلك يزيد الأمر صعوبة حيث يكون على المتلقي أن يتوقف أمام النص؛ ليفهم ما يصدق عليه اللفظ الكنائي.

6- يكون الأمر – أيضًا- صعبًا في الإحالة البعدية حيث لا يعرف المتلقي ما يشير إليه الضمير إلا بعد أن يكمل قراءة النص أو سماعه، ويساعده على تحديد مرجع الضمير إلمامه بسياق النص خاصة سياق المقام.

ولكن على المتلقي أن يسلك عدة طرق للوصول إلى الفهم الصحيح للنص وتحديد مرجع الإحالة ومعرفة المحال إليه.

---

(63) الإحالة في نحو النص،ص14.

(64) السابق الصفحة نفسها.

ومن هذه الطرق:

1 - فهم النص فهما شاملا وصحيحًا.

2- تحديد الصيغ الاسمية السابقة التي تدل على أفراد أو جماعات أو مدن...

3- تحديد الصيغ الإسنادية السابقة ومراعاة المعنى العام الذي تولده العبارة مع الاستعانة بالسياق في ذلك.

4- مراعاة المقام في الإحالة الخارجية وربط النص بسياقه اللغوي وكذلك بسياق المقام.

أهمية الإحالة في النص

إن المتأمل للإحالة يرى أنها من أهم وسائل سبك النص بل والوسيلة الأكثر قوة في صنع هذا السبك وتجسيد وحدته، ومرد تلك الأهمية يعزى إلى أن الإحالة تجمع بين الترابط الرصفي والترابط المفهومي.أي بين الترابط اللفظي والترابط المعنوي.

ومن هنا تسهم الإحالة في جعل النص كلا واحدا يترابط أوله بآخره وآخره بأوله فكأنه أفرغ إفراغا واحدا

كما أن الإحالة تعطي المتلقي دورا في فهم النص وخلق جمالياته من خلال البحث عن مرجع الإحالة - لا سيما الإحالة البعدية وكذلك الخارجية-. ومن ثم فإن للإحالة دورا مهما في تماسك النص وترابط عناصره.

وفي معالجتنا لموضوع الإحالة هنا؛ نركز على المعطيات اللغوية، ونهتم بها؛ وذلك لإيماننا المطلق بأن شعرية اللغة تكمن في نظامها، وليس في المعاني والموضوعات التي تعالجها. إذ إن الشعرية« وظيفة غائية تتجلى في إدراك الكلمة ككلمة لا كمجرد بديل عن شيء مسمى أو كتفجير عاطفة، إنها تتجلى لا في كون الكلمات ونحوها ومعناها وشكلها الخارجي والداخلي علامات لا مبالية للواقع، بلا من حيث كونها كلمات لها وزنها الخاص وقيمتها الذاتية"[65]، وهكذا يحدد جاكوبسون الوظيفة الشعرية بأنها إحدى الوظائف الأساسية في اللغة، ويضيف أنها إحدى الوظائف الموجودة في كل أنواع الكلام، فبدون الوظيفة الشعرية تصبح اللغة ميتة وسكونية تماما، فالوظيفة الشعرية تدخل دينامية في حياة اللغة.

وهناك غرض آخر هو تناول الشعر بوصفه فنا لغويا« وإذا تناولنا الشعر بوصفه فنا لغويا فإن النحو في هذه الحالة يعد أحد الأبنية الأساسية التي ينبغي الاعتماد عليها في التفسير؛ لأن العلاقات النحوية في النص على مستواه الأفقي هي التي تخلق أبنيته التصويرية، والرمزية وعلى مستواه الرأسي هي التي توجد توازيه وأنماط التكرار فيه وتحكم تماسكه واتساقه وهذا كله يؤسس بنية النص الدلالية.

وقد نتوسع في مفهوم (النحو) بحيث يشمل منظومة القواعد الصوتية والصرفية والتركيبية التي تحكم بنية النص في ترابط وانسجام؛ لأن كل عنصر في بنية النص اللغوية يمثل جزءا في بناء دلالته.والتفسير الدلالي لأي نص يقوم على هذه المعطيات."[66]

وثمة غرض ثالث هو الغاية القصوى من هذا البحث، ذلك الغرض هو« الانتقال بالنحو العربي و(اللسانيات العربية) عامة من طور ظل فيه حبيس أسرار الجملة أي الكلام المفيد فائدة يحسن السكوت عليها إلى طور يكون فيه النحو (بالمفهوم الواسع للمصطلح) قادرا بوسائله على محاصرة النص ووصفه، والكشف عن علاقاته التي تتحقق بها نصية النص بما هو حدث تواصلي مركب ذو بنية مكتفية بنفسها قادرة على الإفصاح والتأثير والفعل."[67]

---

(65) النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون ص 74.

(66) الإبداع الموازي ص 10.

(67) نحو أجرومية للنص الشعري ص 153.

لقد كان هذا العرض، وهذا الرصد، وذلك التتبع الذي بغرض استظهار عناصر الإحالة وأقسامها وبنيتها من وجهة نظر علماء النص، كما وردت عندهم على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم؛ فإنه يجدر بنا الآن أن نحاول أن نرى مدى التوافق والتطابق بين هذه المقولات، وبين القصائد الشعرية، أو لنحاول أن نرى إمكانية تطبيق هذه المقولات على الشعر، ومدى إسهامها في استخراج الشعرية واستظهارها في نصوص حجازي، ومدى ما تقوم به من ربط عناصر النص، والعمل على سبكه؛ حيث تؤدي دورها في سبك النص واتساقه مع بقية العناصر، فالنص" جملة من العناصر تترابط بتوفر الروابط التركيبية والروابط الزمانية، وكذلك الروابط الإحالية فلا يكاد نص يخلو من ضمير عائد أو اسم إشارة أو اسم موصول أو غيرها من المعوضات، وهذا أمر يسرته وظيفة الذاكرة البشرية التي يمكنها أن تختزن آثار الألفاظ السابقة، وتقرن بينها وبين العناصر الإحالية الواردة بعدها أو قبلها فتحللها بنجاح دون ضير بالتواصل، وعلى هذا الأساس تقوم شبكة من العلاقات الإحالية بين العناصر المتباعدة في فضاء النص فتجتمع في كل واحد عناصره متناغمة، وهذا مدخل الاقتصاد في نظام المعوضات في اللغة، إذ تختصر هذه الوحدات الإحالية العناصر الإشارية وتجنب مستعملها إعادتها وتكرارها."[68]

ونظرة يسيرة في نص: ***العام السادس عشر*** [69] ترينا أن العناصر الإحالية تبرز بوضوح في ذلك النص، وإذا تأملنا مكان القصيدة من الديوان (الأعمال الكاملة) وجدنا له قصدًا معينًا فهي" تحمل بذرة الثورة والتمرد ليس على العام السادس عشر، وفي حياته الذاتية فحسب، بل في حياة مجتمعه... وهي ثورة الرغبة الحادة في النمو والتطور.. هي ثورة تتجاوز وتمتد دون أن تقتلع الجذور والأصول."[70] وهذه الثورة العارمة في النفس تظهر آثارها في الكلام المنطوق من خلال الإحالة إلى الأشياء التي تشغل بال الشاعر فيتحدث عنها أو إليها، ويتجادل معها ويحاورها، وهكذا فإن المتأمل لهذا النص يجده يحفل بالعناصر الإحالية بداية من أول كلمة فيه وهي كلمة (أصدقائي) بإضافتها إلى(ياء المتكلم)، وهي العنصر المحيل هنا، ثم الكلمة التالية لها وهي ضمير المتكلمين (نحن) التي تحيل إلى عنصر خارج النص وهم الأصدقاء إضافة إلى الشاعر ذاته، وحتى آخر سطر شعري في القصيدة وهو: واحذروا عامكم السادس عشر.

وهكذا نجد القصيدة محصورة بين عنصريين إحاليين: (ياء المتكلم) في البدء و(كاف الخطاب) في كلمة (عامكم)، وبين هذين العنصرين توجد عناصر إحالية كثيرة داخل القصيدة.

وقد نجد أن العناصر الإحالية هنا يغلب عليها الطابع الكنائي؛ فكلها ضمائر باستثناء عنصريين إشاريين، وعنصر موصول. الإشاريان هما:

(هؤلاء) في قوله:

كنت أهوى هؤلاء الشعراء

و(يوم) في قوله:

يوم فتحت على المرآة عيني

والعنصر الموصول (من) في قوله:

والمحب الحق من يهوى ويفنى

واتكاء البنية الإحالية في هذه القصيدة على الضمائر يؤكد أن الضمائر هي الأكثر وروداً، كذلك يؤكد أن تنوع الضمير في" النص يعطي مجالا آخر لتعدد الأصوات في النص مما يكسب النص درامية، خاصة إذا اقترن تنوع الضمائر بحوار في البنية النصية فإن هذا الحوار

---

(68) نسيج النص ص 121 .

(69) أحمد عبد المعطي حجازي دار سعاد الصباح ط1 القاهرة 1993 ص من 11: 16 .

(70) رجاء النقاش: مقدمة ديوان أحمد عبد المعطي حجازي ص 7 ط3 دار العودة - بيروت 1982.

وانظر : رجاء النقاش : أدباء في المقدمة ص 65 - الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – ط1– سلسلة كتابات نقدية – مايو 2003 .

(*)وكلمة يوم هنا عنصر إشاري بمعنى أنه ظرف يشير إلى زمان معين حسب منظور نحو النص .انظر : نسيج النص ص 115 ، والإحالة في نحو النص 9 .

يضفي على النص حيوية وتدفقا وينفي عنه أحادية الصوت التي قد تدفع إلى الملل أو تحول النص إلى الإفضاء والبوح الذاتي إذا استطاع أن ينجو من الإملال." [71]

وهذا هو المتحقق فعليًّا في هذا النص، فإذا كانت الفكرة الرئيسية في النص تدور حول التحول البيولوجي الذي يعتري الإنسان عند سن السادسة عشر، وما يصاحب ذلك من تغير في المشاعر تجاه الذات وتجاه الآخرين، وهذه الفكرة وإن جاءت على لسان راو واحد هو الراوي البطل كما يقول لنا علم السرديات[72] فإن تعدد الضمائر قد أفرز أصواتًا عديدة مما يسهم في سبك النص وترابط أجزائه؛ وذلك من خلال تعدد الأصوات، ومن خلال المحاورة، والأخذ والرد.
والعنصر المحيل في المقطع الأول بعد (الياء) يتراوح بين الضمير المنفصل في قوله (نحن) ثم الضمير المتصل (نا) في قوله:
وتركنا عامنا
وعن طريق تكرار العنصر المحيل بلفظه مرة وبمرادفه مرة أخرى يتم الربط بين أجزاء النص، وكذلك مدى الإحالة القريب حيث لا تتسع المسافة بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه.
وتتوزع الضمائر بين البارز والمستتر في النص ما يضفي درامية على القصيدة، فالشاعر حين يتكلم عن مشهد الشرفة الدكناء التي تقف بها حبيبته يحيل على هذه الشرفة عن طريق (ها) في قوله:

لأراها

وهي إحالة على سابق؛ بل تتوالى العناصر الإحالية قريبة المدى في السطر نفسه في قوله:

لم أكن أسمع منها صوتها

وهي تحيل على الشرفة مجازا، وعلى صاحبة الشرفة حقيقة فهي إحالة داخلية خارجية في الوقت نفسه؛ فالانشغال بالمكان، وبمن حل به، ما ينتج عنه درامية داخلية في نفسية الشاعر.
وتستمر الإحالة عن طريق (ها) في هذا المقطع حتى نهايته مما يدل على سيطرة حالة الحب الطاهرة البريئة، وهي تلك الحالة التي تسيطر على المراهق في سن السادسة عشرة - على الشاعر- فهو يحبها ولم يسمع منها صوتها، إنما يكتفي بأن يراها، وأن تشير هي له بيدها لتحييه وهو قانع هائم؛ ليعود بعد تلك الإشارة سعيدا فرحا ويمضي ليله ساهرا مع الشعراء الرومانسيين مستغرقا في خيالاتهم وتصاويرهم، والبكاء على المحبوب القريب البعيد، وسيطرة الحزن عليهم رغم أن السعادة لا تبعد عنهم، لكنها نزعة التشاؤم التي شاعت عندهم، فهم يرتوون من دمعهم ويتغنون بالمستحيل، وألوان الذبول،وأوراق الخريف.

ولا يخفي علينا أن استخدام التناص مع شعر إبراهيم ناجي[73] ؛ قام بدور حيوي، وفعال في اتساق أجزاء النص، وتلاحمها، حيث وظّف مقطع من قصيدته الأطلال في القصيدة، والتناص من وسائل الترابط في علم النص.وكذلك استخدم أسطورة الطائر الأسود.

والمتتبع لعدد الضمائر المفردة للمتكلم (الشاعر) يجدها تبلغ ثمانية وأربعين ضميرا جاءت متنوعة ما بين البارز مثل:(تاء المتكلم) في فتحت عيني و(ياء المتكلم) في قوله: أصدقائي- لوني- عيني.
والمستتر في قوله: أهوى –أرتوي- أتسامى.

---

(71) الإبداع الموازي ص 179 .

(72) جيرار جينت: خطاب الحكاية ، بحث في المنهج ، ص 162 ، ترجمة محمد معتصم ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي ، القاهرة 2000.

(73) إبراهيم ناجي : ديوان إبراهيم ناجي ص 132 – دار العودة – بيروت – لبنان – 1986.

ولا شك أن هذا يصنع ترابطًا واضحًا في القصيدة؛ لأنها تتناسب مع ورود القصيدة على لسان راو واحد هو (الشاعر)، إضافة إلى تفاعلها مع الضمائر الأخرى في القصيدة.

وقد يأتي ضمير المتكلم مسيطرا على مقطع كامل من القصيدة مثل قوله:

كنت أهوى هؤلاء الشعراء
أتسامى فوق غيم نسجوه
وأرى الحب.. شرودًا و تهاويم وحزنا
والمحب الحق من يهوى ويفني
وعميق الحب حب لم يتم
ليقولوا يا للحن لم يتم

وأعني هنا بسيطرة الضمير أي الضمير السارد؛ لأننا نلحظ في المقطع أنواعا أخرى من الضمائر مثل: (واو الجماعة) و(هاء الغيبة) في: نسجوه، والضمير المستتر (هو) في: يهوى ويفني، إضافة إلى العنصر الإشاري (هؤلاء) الذي يحيل إلى لاحق وهو الشعراء والذين هم بدورهم خارج النص، وأيضا هناك الاسم الموصول (من).

وسيطرة ضمير المتكلم المستتر في قوله: أهوى- أتسامى - أرى.... في افتتاح الخطاب بعد (تاء الفاعل) في: كنت، إضافة إلى الضمائر المذكورة يضفي تماسكا واضحا على النص من خلال هذا التفاعل الخلاق بين الضمائر المتنوعة؛ وذلك برد الكلام كله إلى مصدر أو متكلم واحد هو الشاعر.

وسيطرة الضمير السارد هنا مرده إلى تلك الروح المعذبة المنشغلة بذاتها؛ أو بالبحث عن ذاتها للخروج من تيه الوحدة، والضياع إلى براح الاستقلال والتفرد.

وقد نلاحظ في هذا المقطع السابق تحولا في البنية والرؤية لدى الشاعر، أو الإرهاصات التي تحمل بذرة التغيير أو الهجوم الهادئ على الرومانسية، ومحاولة بناء نص خاص به، يتوافق مع البحث عن الذات لضائعة.

وهكذا تمضي القصيدة بين التنوع، والتعدد في الضمير وبعض العناصر الإشارية التي تشير مرة إلى سابق، ومرة إلى لاحق، ومرة ثالثة إلى خارج النص؛ مما يعطي النص قوة في الترابط وتلاحما في بناء أجزائه.

ولعل الإحالة الخارجية كانت تلعب الدور الرئيسي في الترابط المعنوي في النص؛ من خلال المحيلات الخارجية مثل: دواوين الشعراء الرومانسيين والشرفة وصاحبتها والساعة في الميدان، والأطفال الذين في الطريق، كل ذلك أسهم في أن تكون القصيدة كلا متآخذًا متناغم الأجزاء ومسبوكا سبكًا جيدا؛ لتقدم لنا صورة متكاملة عن معاناة الذات الشاعرة في تلكم الفترة من العمر.

وإذا كانت هذا القصيدة قد سيطرت عليها الضمائر، ولعبت الدور الأكبر في الإحالة التي أدت إلى ربطها، فإننا نرى أن هناك قصائد أخرى لعبت العناصر الإشارية فيها الدور الأكبر **مثل قصيدة: أنا والمدينة** [74]

حيث بدأت القصيدة بالإشارة إلى (الذات = أنا). الذات المضيعة التي فقدت الاسم (من أنت يا...) المطرودة من الغرفة، وهذه الجملة كما تحمل الإحساس المضخم بالذات تحمل أيضا الشعور بالمهانة في وقت واحد.

---

(74) الأعمال الكاملة ص 97-98 .

وتنتهي القصيدة بالجملة نفسها (هذا أنا) ولكنها تضع بعدها وبإزائها (وهذه مدينتي) لكي تتحول المهانة التي أحست بها الذات المفردة إلى المدينة كلها فتصبح هذه الذات أضخم من المدينة كلها بعدما فعلت بها المدينة ما فعلت.

وهنا تقوم الإضافة إلى ياء المتكلم بدورها الساخر في احتقار ما فعلت بها مدينتها ,

فما البال لو كانت مدينة الآخرين وليست مدينتها.

وأول ما يلفت النظر في هذه القصيدة بعد العنوان الذي استخدم الشاعر فيه العنصر الإحالي (أنا)، ذلك الضمير الذي يحيل إلى ذات الشاعر، وهي خارج النص. وذلك الافتتاح الصارخ بالعنصر الإشاري (هذا) متبوعا بخبر هو عبارة عن عنصر إحالي آخر هو ضمير المتكلم (أنا) بما يحمله من صراع من مجتمعه وظروفه، وأحلامه.

وقد أشار النحاة إلى إن اسم الإشارة هو (ذا) و(ها) للتنبيه وكأن الشاعر يريد من خلال هذا التنبيه أن يلتفت الناس من كل حدب وصوب؛ ليسمعوا قصته المفجعة مع المدينة القاسية التي هي مدينة بلا قلب. والعنصر الإشاري هذا يحيل إلى سابق

هذا السابق المحال إليه مسكوت عنه، وهو أمر جلل بعد أن يعلمه السامع من خلال سياق القصيدة، وما يحيط بها يصرخ الشاعر متوجعا حزينا:

هذا أنا

ويعطف بعد ذلك على هذا الافتتاح الإشاري بعنصر إشاري آخر هو (هذه) المتبوعة أيضا بخبر مضاف إلى عنصر إحالي هو (ياء المتكلم) وتلحظ هنا قرب المدى الإحالي في الافتتاح.

ومن المفارقات العجيبة أن هذه المدينة القاسية التي لا قلب لها يضيفها الشاعر إلى نفسه في قوله:(مدينتي) فرغم أنها مدينته، وينسب إليها إلا أنه يلاقي فيها الجفاء والقسوة، والقلوب التي لا ترق؛ فهو إذن غريب في بلاد تأكل الغرباء كما يقول في إحدى قصائده.

وبهذا تبلغ الدراما ذروتها، ويحتدم الصراع بين ما هو كائن، وما هو مفترض. ويتنازع الشاعر حبه لمدينته، وبغضه أو شكواه من قسوتها وظلمها وظلم أهلها

وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى المرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ (75)

يبدأ الشاعر بعد الافتتاح الصارخ الساخر يقص قصته، وذلك من خلال الربط عن طريق العنصر الإشاري الظرفي (عند) (76) ، ويعضد ذلك من خلال الضمير

المستتر (هو) في قوله: (يبين و يختفي)، العائد على التل، ثم يأخذنا الشاعر راصدا بالكاميرا حالة الوريقة التي عبثت بها الريح؛ فدارت ثم حطت ثم طارت، ثم ضاعت في الدروب؛ وكأني به يتماهى مع هذه الوريقة في ضياعها أو يقرن بين ضياعه وشتات نفسه وبين هذه الوريقة التي لا تستطيع المقاومة؛ بل تظل لعبة للريح تذهب بها؛ حيث تشاء. ومن ثم فهي معادلة لذات الشاعر الضائعة.

وتستمر القصيدة في ترابط إحالي إشاري وضميري في تناوب وتضافر؛ فنجد الضمائر قد ظهرت على السطح بصورة واضحة من أول قوله: (دست على شعاعه....)؛ حيث تتنوع الضمائر ما بين البارز والمستتر، والحاضر والغائب والمخاطب، وتنوع الضمائر يشي بالتشتت الذي يعانيه الشاعر، وكأنه معادل لحالة ضياعه ومحاولة التشبث بأي شيء؛ حتى لا يكون كالوريقة التي عبثت بها الريح.

وتختتم القصيدة بعد ذلك بنفس العناصر الإحالية التي بدأت بها:

هذا أنا

وهذه مدينتي

---

(75)طرفة بن العبد: ديوان طرفة، ص 57، ت: د. علي الجندي، دار الفكر العربي،ط1، القاهرة.د.ت.

(76) أشار رولان بارت إلى أن اللغة أكبر وأدق نظام إشاري معقد في حياة الإنسان وذلك على عكس ما نادى به دي سوسير ، انظر : مناهج النقد المعاصر ص 119.

مما يعني أننا أمام قصيدة دائرة محكمة الإغلاق؛ حيث تنتهي القصيدة إلى حيث بدأت، فهي حالة ضياع وشتات وعجز متمكنة من نفس الشاعر؛ أفضت به إلى أن يخرج تجربته الشعرية في هذا النسق اللغوي المترابط عن طريق العناصر الإحالية.

هذا على أننا نجد نموذجًا فريدا في شعر حجازي يترابط ترابطًا إحاليًّا رائعًا ومدهشا وجديدا في الآن ذاته، ذلك النموذج هو قصيدة تموز[77] التي تترابط إحاليًّا عن طريق ضمير الغائب الذي يأتي في كل بيت من أبياتها. وسنحاول أن نبرز دور هذا العنصر الإحالي في ترابط القصيدة وتماسك عناصرها.

إننا إذا أردنا قصيدة تكون مثالا على تحقق التماسك النصي بجميع أشكاله ووسائله؛ فلن نجد خيرًا من هذه القصيدة التي جمعت كل أشكال التماسك: (السبك) ما بين الإحالة، والتكرار والحذف، وإطالة الجملة، وكذلك تحقق فيها الترابط المعنوي من خلال وحدة الموضوع. كما أسهم كل من وحدة الوزن العمودي (الشكل التقليدي) والقافية الموحدة؛ كل ذلك أسهم في تحقيق أعلى قدر من التماسك والترابط في هذا النص فجاء صورة كلية معبرة وموحية.

وإذا نظرنا إلى القصيدة من حيث الشكل وجدناها تلتزم الشكل العمودي المألوف وتلتزم كذلك قافية موحدة تتردد على كل مساحة أو مسافة إيقاعية معينة وملتزمة على طول القصيدة نظرا لطبيعة الشكل العروضي الذي كتبت عليه.

ونجد أن القصيدة كذلك طويلة إلى حد ما؛ حيث يبلغ طولها ثلاثة وخمسين بيتا عموديا.

وتتعدد حركة الضمائر على سطح النص وتتنوع" وتنوع هذه الضمائر من متكلم، أو مخاطب أو غائب، وغلبة بعضها في النص على البعض الآخر، والتحول الذي يتم بينها واكتناف بعضها للبعض الآخر، واحتواء بعضا للبعض الآخر، وما يظهره كل ذلك من حركة دلالية في النص نفسه؛ تعد انعكاسا لحركة الضمائر في النص فضلا عما تقوم به الضمائر من التماسك النصي من حيث الإحالات المتطابقة، أو غير المتطابقة، والتبادل بين الظاهر والمضمر أو العكس."[78]

وهذا التبادل و التعدد، والتنوع في حركة الضمائر يضفي على النص نوعا من تعدد الأصوات" وهذا التعدد في الأصوات يصحبه من جدل الثابت والمتغير في التشكيل اللغوي ما يجعل من تجربة النص شبكة من العلاقات الصياغية والمضمونية الآسرة التي تعلي من كفاءة النص وفعاليته." [79]

وإذا كنا قد قمنا بحصر لأبيات القصيدة فإننا نجد أيضا أن عدد ضمائر الغائب الواقعة في محل نصب مفعول به والمسندة للفعل المضارع تبلغ ستة وعشرين موضعا جاءت كلها في القافية، إضافة إلى اثني عشر ضميرا في ثنايا الأبيات.وهذه الضمائر عناصر إحالية تحيل كلها على سابق أي إلى الوراء؛ مما يعني أن الشاعر مستمر في سرد القصة، أو رسم الصورة لم يخرج عن سياق الحديث الواحد، مثل قوله:

والحب مهما أسر صاحبه
مصيره شاعر يغنيه

فالضمير الغائب في كلمة (يغنيه) يعود على المتقدم وهو الحب.

---

(77) الأعمال الكاملة ص 233.

(78) الإبداع الموزاي ص 177.

(79) نحو أجرومية للنص الشعري ص 153.

كما أن هذه الأفعال المضارعة الملتصقة بها ضمائر الغائب؛ تحتوي أيضا على ضمائر مستترة تقوم بدور الفاعل العائد على متقدم في النص ، كل هذا من شأنه أن يحقق الوحدة والترابط في النص ويجعله متناغم الأجزاء من خلال أحادية مرجع الضمير.

ويأتي ضمير الغائب الواقع في محل جر مضاف إليه في القافية في سبعة وعشرين بيتا من أبيات القصيدة؛ وهي مسندة إلى مشتقات متنوعة كاسم الفاعل واسم المكان وجمع التكسير، وبعض المصادر، وكلها تحيل إحالة قبلية؛ مما يعني الاستمرارية والتقدم. هذا إضافة إلى ثلاثـــة وأربعين موضعًا داخل الأبيات يأتي الضمير فيها في موقع المضاف إليه وهو متنوع بين المذكر والمؤنث، وكلها إحالات قبلية أيضا.

وهذا الحصر يوضح دور ضمائر الغياب المسيطرة سيطرة واضحة على النص من أوله إلى آخره، مما يكون له أكبر الأثر في تماسك النص وسبكه؛ من خلال الاستخدام الكنائي والتلميح، وليس الأمر مقتصرا في هذا النص على ضمائر الغياب وحدها، بل هناك ضمائر المتكلم المفرد والجمع وبعض العناصر الإشارية كقوله:

هذا الطريق الطويل أبدأه

....

هذا الطريق الذي أغاديه

.....

هذا حصاني...ولا أخليه

كما توجد بعض أسماء الموصول كقوله:

أنا الذي أمنه تغربه

وقربه للرضى تقاصيه

فهنا ساعد اسم الموصول إلى جانب أسلوب الالتفات البلاغي النحوي في التحول من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة في رسم المفارقة وبنائها، ومن ثم في تنامي الحدث الدرامي. ولا يقتصر الأمر على الأدوات الإحالية فحسب؛ بل توجد كذلك بعض الأدوات التي يطلق عليها أدوات المقارنة، وهي تتمثل في بعض الصيغ التي لا تخضع لأي من الأنواع السابقة من أنواع الإحالة، ولكنها كلمات أو عبارات تحيل إلى عناصر أخرى داخل النص أو خارجه، ومن ثم فهي تقوم بدور كبير في ترابط النص عن طريق الإحالة، و هذه الكلمات تبدو في قول الشاعر:

وكيف ينسى الهوى معانيه؟

وكيف ينسى وفيه مولده ؟

.....

وثم بنت.....

.....

أنى لويت

.....

هيا وكان الشتاء

كل هذه التعبيرات؛ ما هي إلا أدوات إحالية من شأنها الإسهام في عملية سبك النص، والتحام أجزائه عن طريق ما تقوم به من إحالات سواء أكانت إحالات داخلية أم كانت إحالات خارجية كما في قوله[80]:

وثم بنت أظلُّ أجعلُ من

عيونها حارسا أؤاخيه

فهي بالطبع تقع خارج النص، ولكن الإحالة إليها تسهم في تناسق النص؛ سواء أكان عن طريق الربط اللغوي من خلال الإشارات اللغوية، أم كان من خلال الربط المعنوي لموضوع النص.

كانت الإحالة الغالبة على هذا النص هي الإحالة القبلية؛ مستندة في ذلك إلى أدوات متنوعة من أدوات الإحالة كان أبرزها ضمير الغائب الذي قام بالدور الأكبر، والواضح في ربط كلمات النص وعناصره بعضها ببعض.

وتكرار ضمير الغائب (الهاء) في القافية يعود على تموز شهر الثورة في القصيدة كلها يساهم في اتحاد أجزاء النص وانسجامها.

وما هذا النص إلا نموذج من نصوص كثيرة لدى الشاعر تتمتع بهذا القدر الواضح من الترابط اللغوي عن طريق الإحالة، وعن طريق أدوات أخرى من أدوات التماسك النصي الظاهرة على سطح النص، وكذلك العلاقات المعنوية القائمة بين أجزاء النص مما يجعله متماسكا متلاحم الأجزاء.

وقصائد حجازي كلها مليئة بالعناصر الإحالية على تنوعها وتباينها منها على سبيل المثال قصائد: قصة الأميرة والفتى الذي يكلم المساء[81]، وبغداد والموت[82]، وثلاث أغنيات للمقاومة[83]، و الرجل والقصيدة[84]؛ وهي نسق فريد في الربط عن طريق الإحالات المتنوعة، وغيرها قصائد أخرى كثيرة غير هذه القصائد.

ويمكننا بعد هذا أن نقول: إن الألفاظ المستخدمة في الإحالة ما هي إلا ألفاظ كنائية كما قال دي بوجراند، وهذه الألفاظ الكنائية لها سمات تتميز بها حتى يتحقق الغرض من استخدامها، وهذه السمات يمكن حصرها فيما يأتي[85]:

1- أنها ألفاظ خالية من الدلالة فلا تدل على شيء في ذاتها، وإنما بما تشير إليه وتحيل إليه من صفة أو ذات أو شيء أو أشياء متعددة ومتنوعة.وهي تقوم بوظيفة تعويض الأسماء وتتخذ محتوى ما تشير إليه.

2- أنها يتسع مداها عند التطبيق، فتارة تحيل إلى شيء سابق وأخرى تحيل إلى

3- شيء لاحق، ومرة تحيل إلى ما هو قريب، وأخرى تحيل إلى ما هو بعيد، وتارة تحيل إلى معنى ,وأخرى تحيل إلى ذات ومرة تحيل إلى جملة وأخرى تحيل إلى مجموعة من الجمل.- أنها أقصر –غالبا- مما تدل عليه أو مما تحيل إليه من الألفاظ، فلاحظ مثلا الفارق بين بعض الضمائر وما تحيل إليه:

- (هو) تدل على علم مذكر مثل: إبراهيم- إياد – أحمد –مهاب- سليم- جاسر..إلخ
- (هي) مجموعة الأعلام الإناث مثل: فاطمة – ليلى- أروى –مريم – مي..إلخ

وهكذا بقية الضمائر أقصر دائمًا ممن تحيل إليه.

---

(80) الأعمال الكاملة ص 233.

(81)) الأعمال الكاملة ص 43 .

(82) السابق ص 89.

(83) السابق ص479 .

(84) السابق ص611 .

(85) انظر : نسيج النص ص 116، وانظر : الإحالة في نحو النص ص 12.

ويتفق هذا الكلام مع قانون زيف الذي تكلم عنه دي بوجراند ومحتواه" كلما كثر استعمال الكلمة تعرضت لأن تكون أو أن تصبح أقصر."[86]

4- لا بد من إخضاع هذه الألفاظ لمجموعة من الضوابط عند استخدامها؛ حتى لا تتحول دلالتها إلى إشكالية لا فائدة منها غير الغموض.
5- لا بد من كفاءة الألفاظ الكنائية" وهذه الكفاءة تظهر حين تستعمل تلك الألفاظ للدلالة على قطع طويلة من الخطاب الذي يُنَشِّط مساحات كبيرة من المعلومات." [87]
هذه هي أهم سمات الألفاظ الكنائية التي تستخدم في الإحالة.

ويمن ثم فإن الإحالة تعد أهم وأقوى وسائل اتساق النص وانسجامه وأن نص أحمد عبد المعطي حجازي حافل ومليء بوسائل الاتساق وعناصر الترابط، تأتي الإحالة على رأسها وفي مقدمتها.

---

(86) النص والخطاب والإجراء ص 320.
(87) نحو أجرومية للنص الشعري ص153.